

الصراع ورفض الآخرين الجلاء والخفاء في رواية القوقعة يوميات متلصص لمصطفى خليفة

Conflict and rejection of other explicit and implicit in the novel of the Shell, Mustafa Khalifa.

إيمان حطاب^{1*}، سيدي محمد بن مالك².

¹ المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، imanehattab30@gmail.com

² المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، benma_1971@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2024/02/21

تاريخ الاستلام: 2022/01/15

ملخص:

في رواية القوقعة_يوميات متلصص_ تناول الكاتب مصطفى خليفة قضية السجين و معاناته وصراعاته مع المساجين والسجان، صراعات اكتفى الكاتب بالإشارة إليها في خفاء، بينما ظهرت أخرى بجلاء وطفقت على المتن الروائي، من هنا ارتأينا البحث في مستويات الصراع ورفض الآخر في الرواية . من خلال الدراسة تبين جليا أن الروائي يتحدث عن الصراع ومستوياته في المجتمع السوري ؛ وكيف تطور ليصل إلى رفض تام للآخر، فالسجين والسجان في المتن يصوران تلك الاختلافات السياسية والأيدولوجية والدينية التي جعلت الفرد رافضا للتعايش مع الطرف الآخر، ويتضح أن الصراع الحقيقي لا يكمن داخل أسوار السجن إنما هو صراع أعمق ضرب بجذوره مسببا شرخا في جينولوجيا المجتمع.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، الجلاء، الخفاء، الصراع، الأيدولوجيا.

Abstract:

In the novel *The Shell-Diaries of a Peeker*, the writer Mustafa Khalifa dealt with a prisoner story, his suffering and struggles in prison, and the conflict between him and his jailer and the other prisoners, the writer referred to the conflict in the novel explicitly some times, other times implicitly.

The struggles in the novel take so many level: ideological, religious, political, Fainely it turn out that the real dispute is not within the prison walls, but it is a rather deeper dispute between the members of society.

Keywords: conflict, edological, explicit, implicit ,prison literature.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة

الصراع حالة اجتماعية وسياسية تتمثل في تعارض حقيقي أو متخيل للقيم والمعتقدات، ينشأ كنتيجة صدام بين طرفين أو أكثر سببه تعارض للمصالح أو اختلاف للرغبات، فكل طرف من الأطراف المتعارضة يرغب بفرض هيمنته على الغير الآخر. وفي العالم الحديث الغربي والعربي على حد السواء نزاعات وصراعات على أصعدة متعددة سببها: السلطة، الهوية، الأوضاع السياسية أو غير ذلك.

ولأن الكاتب يتأثر بهذه الأحداث التي تجري حوله (في وطنه أو في العالم) فإن ما سيكتبه سيتلون بأطياف هذه الخلافات والنزاعات، وبإلقاء نظرة في المتون الروائية العربية الحديثة، نجد أن هذه المتون سردية تعكس المجتمع العربي وما يعتره من من متناقضات، ففي مجتمعه النصي يصف الروائي تركيبة المجتمع وثقافته وما يحمله من قوى متعارضة وأيديولوجيات مختلفة، ويتحدث في نصه عن قيم أخلاقية وفكرية مختلفة، قيم يتبناها الشخص دافعاً ومحاربة، مما يحدث تضارباً داخل المتن الروائي.

يسبب الاختلاف السياسي أو الأيديولوجي أو الديني، الذي يرى كل طرف فيه أنه على حق وأن الآخر على ضلال، نزاعات قد تصل إلى رفض الآخر والرغبة في إلغائه، وتصور الرواية هذه الصراعات بمستوياتها المختلفة فيتضح ذلك عبر الشخص تارة بجلاء وتارة بخفاء ومواربة.

ولأن رواية القوقعة يوميات متلصص - متن سردي يتناول قصة سجين فلا بد أن يصور الروائي الاختلافات الإيديولوجية التي أدت ببطله إلى الوصول إلى السجن.

فهل اتخذ الصراع شكل واحد في الرواية؟ وهل استطاع مصطفى خليفة تصوير مستويات مختلفة من مستويات الصراع الحاصل بالمجتمع السوري؟ هل تحدث عن كل أشكال الصراع ورفض الآخر بجلاء؟

تطمح هذه الدراسة إلى إبراز الصراعات السياسية والأيديولوجية والدينية التي أدت بالمجتمع السوري إلى ما لا يحمد عقباه، هذه الصراعات التي استطاع الكاتب تصويرها ومناقشة مسبباتها من خلال طرح تميز بالجلاء تارة والخفاء في أخرى.

أولاً: أدب السجون السيرة الذاتية المهربة بين الإخفاء والبوح:

يعبر الكاتب عن واقعه المعاش وتجاربه الحياتية في أعماله الأدبية، فإن لم يكن المتن الروائي سيرة ذاتية معلنة فإن الكاتب دوماً وبمهارة يتمكن من التهرب من الرقابة والسلطة فيمزج بين أحداث واقعية حقيقة وبين المتخيل، وهذا ما قام به مصطفى خليفة حيث كتب رواية القوقعة ليسجل شهادته عما يحدث بالسجون السورية.

1. أدب السجون:

تنتمي الرواية إلى أدب السجون؛ الذي يشكل ظاهرةً روائيةً عربيةً يتعاظم انتشار كتابها في ظل أنظمة سلطوية قامعة، فأدب السجون هو الفن الذي يعمل على تسليط الضوء على حياة هؤلاء الناس أفراداً ومجموعات، يعتني بإعادة تشكيل الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيشونه، إعادة بناء الحياة التي يحيونها بغرض محدد هو كشف ذلك الواقع وتلك الحياة ومن ثم تغييرهما (ناصر، 2005، 05). يصور الأديب تجربة السجن ويدخل دهاليزه فاضحاً وحشيته وفظاعته، ويرصد السجن مدفوعاً إلى مكان كرهه، في حركة قسرية ينتقل خلالها السجن إلى مكان مرفوض سلفاً نحو

الفقد والخراب، و التنكيل و العذاب ، يفقد فيها حريته و إنسانيته، هي رحلة تنتهي بسجين مقهورٍ مطارِد، مصيره التَّهميش أو الجنون أو الموت. إنَّها رحلة التَّشظِّي بكلِّ أبعاده، رحلة تكشف عن سادية السجان وعذابات السجناء .

تتمثل عقوبة السجن في الحرمان من الحرية ومنع السجين من ممارسة حياته الطبيعية، وهي عقوبة تقررها السلطة(فوكو، 1990، 258) وقد عوقب العديد من المفكرين و الأدباء العرب بالسجن لفترات مختلفة، مما جعلهم يسجلون شهاداتهم وتجاربهم في رواية تندرج ضمن أدب السجون، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

(مليكه أوفير _ السجينة) (حسام كنعانة _ مرايا الأسر) (نوال السعداوي _ مذكراتي في سجن النساء) (عبد الرحمن منيف _ شرق متوسط) (ايمن العتوم _ياصاحبي السجن) (هبة الدباغ _خمس دقائق وحسب تسع سنوات في السجون السورية) (احمد المرزوقي _تزممارت) (مصطفى خليفة الفوقعة _يوميات متلصص).

2. تماهي السيرة الذاتية مع الرواية :

متسلحا بالكلمة عمد مصطفى خليفة إلى التصوير بأسلوب سردي تقريبي، يماثل الكتابة السيرذاتية ، سجن الروائي مصطفى خليفة مرتين ، في المرة الأولى دام سجنه قرابة السنتين أما في الثانية فقد دامت ثلاثة عشرة سنة من 1981 إلى 1994، فقرر أن يكون شاهدا عما حدث و ما يحدث في المعتقلات، عبر تقنية التخيل الذاتي وبضمير المتكلم يروي مصطفى خليفة ما حدث للشباب السوري المسيحي المغترب ، الذي أتم دراسته للإخراج السينمائي بفرنسا وقرر العودة لبلده الأم سوريا.

قال بطل الرواية لصديقه أن البلد في حاجة إلى أمثاله، ولكن بمجرد وصوله للعاصمة دمشق، يُقبض عليه و يتم ترحيله لمقر مخابراتي، فيجد نفسه متهمًا بالانضمام لجماعة الإخوان المسلمين، يجلس البطل السجين، الذي لا نعرف له اسمًا طوال صفحات الرواية، في المقر المخابراتي بضعة أيام، يحاول خلالها أن يقنع المحققين، بأنه مسيحي، بل وملحد أيضًا، فكيف يكون عضوًا بالإخوان المسلمين، وأنه لا بد من وجود خطأ ما. ولكن كل ذلك لم يفد بشيء، إذ تم ترحيله إلى سجن تدمر، و بمجرد الوصول إلى السجن، بدأت حفلة استقبال الدفعة الجديدة من السجناء المكونة من 91 شخصًا، ونتج عن الحفلة وفاة 13 منهم، وأصيب اثنان بشلل دائم، وصار أحدهم أعمى لتلقيه ضربة كبراج على عينيه. كرر البطل محاولته إقناع الجلادين أنه مسيحي، ولكن تصريحه جعلهم يكثرون من ضربه، إذ اعتبر المساعد أن جريمته مزدوجة. يتقاطع الواقع مع التخيل وينتقل الكاتب من البوح والإفصاح إلى الإخفاء ، فالروائي قد سجن بتدمير السجن سيء السمعة الذي خصص للمعتقلين الإسلاميين (حاج صالح 2012، 28) لم يكن الكاتب منتميا للإخوان فهو شيوعي يساري، واحد من قلة من الشيوعيين الذين نقلوا لتدمر، وليروي عن هذه المرحلة المعتمدة استخدم الكاتب التخيل الذاتي ليتحرر من ميثاق الصدق ، فتحدث عن البطل المسيحي الملحد المتهم بانضمامه للإخوان، والذي يعترف بإلحاده ، عله يبعد عن نفسه تهمة الانتماء للإخوان ، و ما هذا إلا غطاء استعمله ليتحدث عن ذاته فهو شيوعي ، و الشيوعية كمذهب سياسي طالما اهتمت بالإلحاد و الخروج عن الدين ، فهو و البطل مسجونان في سجن خصص لمعتقلين ذوي توجه ديني و ايديولوجي ابعد ما يكون عن معتقداتهم فزاد هذا التجربة مرارة ورهبة، وإن كان التوجه الديني لبطل الرواية معلنا في الرواية فإن الكاتب قد أخفى التوجه السياسي الذي ينتهي إليه ولم يذكره لا تلميحاً و لا ترميزاً .

ينقلنا مصطفى خليفة إلى دهاليز سجن تدمر بتقنية تصوير مبكٍ مضحك يأخذك في جولة عبر الزمن فيبوح ويفصح عما يحدث في تدمر، لترى فيها أساليب التعذيب والقتل التي يمارسها النظام بحق السجناء السياسيين، ترى معه الظروف الصحية، الأمراض المعدية، لا أدوية ولا علاج، لا زيارات ولا أخبار، شح الطعام ورداءة أصنافه، الملابس

المهترئة التي يلبسها السجناء لعدة سنين، البرد الشديد في الشتاء وقلة الأغذية، الحر القاتل في الصيف والعواصف الرملية التي تضربها الصحراء.

وأنت مع الكاتب بتفاصيل الحياة يوما بيوم تدرك أن التعددية الثقافية، الدينية والفكرية في المتن السردية، اتخذت مسارات للصراع، أما الحروب الدينية والخلافات الأيديولوجية فهي واقع معاش فرض وجوده على الشخصيات الورقية فيسرب إليك بمخاتلة واقع الشعب السوري المر.

ثانيا: بنية العنوان بين جلاء اللفظ وخفاء المعنى:

العنوان تسمية للنص، تعريف به وكشف له، فهو علامة سميائية تمارس التدليل وتتموقع على الحد الفاصل بين النص والعالم ليصبح نقطة التقاطع الاستراتيجية التي يعبر منها النص إلى العالم والعالم إلى النص (حسين، 2007، 9)، اختار مصطفى خليفة لروايته عنوان القوقعة كعنوان رئيسي وأضاف يوميات متلصص كعنوان فرعي.

لما القوقعة؟ لأن البطل أجبر على التوقع والانزعاج ليس فقط من طرف السجناء بل من قبل المساجين الذين رأوا فيه مسيحيا كافرا نجسا، وملحدا يجب قتله تطبيقا للشرعية لذا انسحب البطل "كسلحفاة أحست بالخطر وانسحبت داخل قوقعتها، أجلس داخل قوقعتي أتلصص، أراقب، أسجل، وأنتظر فرجا، (خليفة 2010، 34) فإن كان الانغلاق آلية دفاعية والتوقع قسريا لإراديا فإن التلصص رد فعل أكسب الشخصية مساحة أخرى لقراءة الواقع والمحيط من حولها قراءة متأنية وثاقبة تعينها في إجابة التصرف في مواقف حرجة محتملة، الآن استطيع أن أرى كل ما يدور في الساحة متى أشاء ذلك، استطيع أن أتلصص على الخارج كما أتلصص من ثقب قوقعتي على الداخل (خليفة 2010، 53). هو التلصص لأجل البقاء، في ظل الصراع السياسي والفكري القائم في المهجع، صراع يكشف عن هشاشة المجتمع العربي وقد رصده الكاتب ملمحا حيناً ومبينا في آخر، ناقلا الواقع في الحالتين.

المبحث الثالث: تجلي الصراع في رواية القوقعة وخفايا رفض الآخر:

الصراع الثقافي والإيديولوجي والديني حقيقة وواقع حاضر في السرد العربي، وتصوير مصطفى خليفة للواقع هو ما جعله يكتب في أدب السجون - سجن لمدة 13 عاما لانتسابه للحزب الشيوعي - فألقى في روايته الضوء على النزاعات والصدمات التي يعاني منها المجتمع العربي عامة والسوري خاصة، فقد صارت التعددية الدينية الطائفية واختلاف المشارب الثقافية والرؤى السياسية سببا في الفتن والحروب الأهلية والمجازر العلنية، هي تجليات ثقافة رفض الآخر، حضاريا سياسيا ثقافيا ودينيا، هذا الرفض يظهر في الرواية عبر المستويات التالية:

الصراع السياسي:

الحديث عن السياسة حاضر في عديد من الأشعار الروايات والقصص، فالعلاقة بين الأدب والسياسة "علاقة جدلية ومتواصلة، طالما وجد الأديب نفسه داخل مجتمع معين يعبر من خلاله عن دوره وحقوقه ومكانته، ويبحث بشكل دائم عن حريته وإنسانيته (صالح سليمان 1998، ص 30).

الحرية لا بد أن تكون في كافة المجالات والحديث هنا ينصب على الحرية السياسية، التي تكفل ممارسة العمل السياسي للفرد وتمكنه من الانضمام إلى التوجه الحزبي الذي يراه مناسبا له، ولكن الدولة وبآلياتها الإيديولوجية تفرض على المواطن الانصياع لإيديولوجيتها المهيمنة: عبر المدرسة، الدين متمثلا في الكنيسة أو المسجد، النظام القضائي النقابات)

Althusser,1970,p21) والنظام السلطوي في الرواية وظف كل هذه الآليات ليبقى في الريادة، فشدد الاحتدام بين الإخوان وحزب البعث، ليصل الأمر إلى الحادثة التاريخية المعروفة: حادثة حماة.

استثمر الكاتب هذه الأحداث _حماة_ التي "تم فيها أعدم عدد كبير من المعارضين السوريين المنتسبين إلى حزب الإخوان المسلمين، بعد إطلاق النار على مدرسة عسكرية وسقوط الضحايا من طائفة العلوية التي سعى الرئيس إلى تأصيلها بالجيش (ديب، 2012، 569). يتحدث البطل عن يوم المحنة، (مجزرة حماة) وعن الصراع بين الإسلاميين والنظام في البداية بلغة غير العارف، فهو قادم من أوروبا حديثاً فلا يعرف بدايات الصراع بين التيارين، وهو غير منحاز لأيهما، ولكنه حين سجن في السجن الصحراوي بتهمة الانتساب للإخوان، صار مرغماً على معرفة الحثيات و الكواليس السياسية.

يلقي الكاتب الضوء على الصراع السياسي القائم و الذي فرضت فيه السلطة هيمنتها السياسية ومنعت الانتساب لأي حزب معارض ويتجلى ذلك من خلال قول البطل:

لأي تنظيم أنت منتسب؟ (خليفة، 2010، 123) سؤال مرهق يزداد ثقله مع اشتداد التعذيب فكر البطل: ولكن من أين اخترع لهم تنظيماً معادياً غير الإخوان المسلمين و بعدها انتسب إليه (خليفة، 2010، 128).
عبر فقرات كهذه يلمح الكاتب أن غرفات التعذيب هي التي ساهمت في إنتاج أحزاب معارضة، وأن سراديب السجن تمخضت تنظيمات فاقدة للثقة في غيرها غير قابلة للتعايش مع الغير.

الصراع الديني:

لونت النزاعات الطائفية الساحة الدينية السورية، وتعاضم الشرخ بين الأغلبية السنية و غيرهم من الشيعة و العلويين و المسيحيين، و لو أن بعض هؤلاء إتخذ الدين مطية للوصول إلى السلطة، فإن قسماً آخر تشرب التعصب الديني و رفض الآخر لاعتناقه ديناً مخالفاً أو مذهباً مغايراً، ومن مظاهر الرفض المبني على خلفية دينية في الرواية، الصراع المحوري الذي تدور حوله الرواية، المسلم و الملحد في زنزانة واحدة، فهل ينسجمان؟ أيتعايشان أنطقى الإنسانية أم أن وجود أحدهما يتطلب إلغاء الآخر؟

تلقى البطل ضرباً مضاعفاً، حين اعترف انه مسيحي الديانة أما اعترافه بإلحاده فقد قلب المهجع رأساً على عقب، وإن كان بعض الأفراد قد تعاطفوا معه، فردة فعل الأغلبية كان يعبر عن الرفض والاحتقار و الرغبة بالقتل وهذا ما دفع الكاتب للتفوق، طوال هذه الفترة كنت أتوق إلى من أحادثه، أن أجرب قدرتي على الكلام من جديد، لكن قوة الكره كانت تلصقني بالبطانية وتلصق البطانية بالأرض (خليفة، 2010، 130)

لم بين هذا الكره الذي يكنه باقي السجناء للبطل على فعل أو عمل قام به، كان الكره ناتجاً عن عدم إيمانه بالله وعدم انتسابه للجماعة، وبسبب اختلاف المعتقد كاد يقتل في غير ما مرة و الغريب أن ما حفظ حياته هو اختلاف في آراء و معتقدات جماعة الإخوان.

فهذه الجماعة التي كان يراها واحدة كشفت له الأيام أنها مختلفة المشارب و الرؤى، فإن كان دستورهم واحد ومرجعيتهم واحدة -القرآن- فإن تفسيرهم له مختلف:

"عرفت لاحقاً أن ما حفظ حياتي أنهم ليسوا مجموعة واحدة، فبالإضافة للمتشددين اللذين حكموا علي بالموت، وُجد التنظيم السياسي وهو تنظيم لم يحمل السلاح ولم يشارك بالعمليات العسكرية، وهناك جماعة التحرير الإسلامي وهم جماعة مسالمة ومنهم الشيخ محمود وزاهي اللذان أنقذا حياتي، وكذلك جماعات الصوفية وهي كثيرة متشعبة، هذه المجموعات بقدر ما كانت تبدو متماثلة ومتشابهة، يختلف بعضها عن بعضها الآخر إلى درجة أن هذه الخلفيات كانت تصل إلى حد التكفير، إلى حد الاصطدام والاشتباك بالأيدي والضرب المبرح دون رحمة أو شفقة (خليفة، 2010، 33)

فالمجموعات الإسلامية إذن مختلفة المشارب منها تنظيم الإسلامي التحرري الذي كان سببا في بقاء البطل على قيد الحياة وقد مثله الزاهي و أبو محمود ومنهم المتشددون اللذين رغبوا بقتله في عديد من المرات ، خاصة بعد وفود أبو القعقاع الرجل المتشدد الذي دخل المهجع عشرة أيام فعصف به:

خلال العشرة أيام التالية بدأ بالمجموعات الأخرى ، خاصة المجموعة التي ينتهي إليها الشيخ محمود والدكتور زاهي ، وهي مجموعة نقيض للمتشددين ، لا تؤمن بالعنف والكفاح المسلح ، تميل إلى الوسائل السلمية، هاجمها بشدة مسفها آراءها ودعا كبارهم إلى سجال ونقاش علني لأن من واجبه هدايتهم إلى الطريق القويم، وكان رد فعلهم عنيفا ومترفعا ، رفضوا أي حوار معه:

نحن لسنا بحاجة إلى شخص مثلك ، باع نفسه للمخابرات حتى يهدينا. (خليفة، 2010، 33)

وكذلك كان رد الجماعات الصوفية اللذين اتهمهم بأنهم عبارة عن دراويش وجهلة، وأصحاب بدع في الإسلام . وأنهم قد أهملوا ركن الجهاد. (خليفة، 2010، 33)

هذا هو أبو القعقاع يسير مسفها مجادلا رفضا لكل رأي مخالف لرأيه، ولذا كسب عدااء الجميع ما عدا أعضاء مجموعته، وذلك لأن " المتشددين بالعام شباب صغار السن أقرب إلى الطيبة والسذاجة ، شرط ألا يظهر بينهم أبو القعقاع أو صعصعة أو أبو قتادة (خليفة، 2010، 95)

فمن خلال هذا القول يتبين لنا جليا رأي الكاتب في المتشددين من جماعة الإخوان فهم شباب سذج أبرياء غير خطرين، كانوا يعيشون وباقي الفرق بالمهجع في سلام ، ولما ظهر أبو القعقاع ظهرت المشاكل كإصراره على إقامة الحد على البطل حتى بعد رفض أعضاء الجماعات الأخرى لذلك، صرخ البطل لأول مرة وتكلم مواجها:

هل تريد ان تقتلني بصفتك وكيلا عن الله في الارض ؟

اجزم انك لست وكيل الله. يا أبا القعقاع أنت تريد قتلي لإرضاء شهوة القتل لديك ، وأرجو أن أكون مخطئا في ذلك ، أرجو أن لا تكون شخصا حاقدا موتورا ، أرجو أن لا تكون كالعقرب أن لم تجد من تلسه تلسع نفسها ... ولكن أقول ، وأشهد جميع الناس هنا ، إذا كان قتلي يحل المشكلة ففضل (خليفة، 2010، 90).

هذه التخمينات التي يطرحها مصطفى خليفة كفرضيات على لسان البطل، تبرئ ساحة الدين و ترجع مشكلة الصراعات الدينية التي يقودها أبو صعصعة وأبو قتادة إلى طبيعة الفرد الدموية وتعطشه للقتل .

بعد الوقوف على مظاهر الرفض في الرواية والقمع ، تتسأل هل يمكننا العيش في وفاق رغم اختلافنا الديني ؟ كان رد مصطفى خليفة في الرواية بصورة مربكة تفجر فيك نبعا من الاحاسيس، صورة وقف فيها البطل المسيحي الملحد ليصلي مع الجماعة صلاة الجنازة التي أقيمت لأبو محمود، وصورة أخرى للبطل بعد خروجه من السجن وهو يقرأ الفاتحة على قبر والديه، ثم يصلي الجنازة هنالك في مقبرة للمسيح، هو قبول لثقافة الطرف الآخر و التماهي فيها طوعا لا قسرا .

الصراع الطبقي :

هو صراع القرية والمدينة و التي تبقى العلاقة بينهما معقدة ، فمن خلال مفاهيمهم الثقافية المغايرة و مواقف الذهنية المتباعدة يبدء الاختلاف و قد ينشب الصراع ، وفي سوريا وجد هذا الصراع أرضية خصبة ، فهو ليس صراعا بين مدينة غنية و ريف فقير وحسب هو صراع الفلاحين الذين منحوا حقوقا و امتيازات عديدة ومنحوا السلطة (بطاطو دس، 90). هذه السلطة الممنوحة جعلت أبناء المدن يثرون ويرون أن هذه بيروقراطية محضه ، أما أبناء الأرياف فكان معظمهم على استعداد للأخذ بالثأر من كل من عامله بدونية و استعلاء .

يتحدث مصطفى خليفة عن أبناء الريف وكيف تقلدوا المناصب السلطوية في غير ما موضع ، ولكن الصراع بين أبناء الحاضرة و أبناء الجبال لا يبدو جليا إلا من خلال شخصية طبيب السجن ،رجل من عشيرة الرئيس و طائفته ، تعرض

للإهانة من قبل زميلة له أعلن لها عن حبه فرفضته ، هذه العقدة جعلته يلعن كل أبناء المدن ، فلا يرحم منهم أحدا ، ووصل به الأمر إلى إعدام كل المساجين من أبناء دفعته

يقول في حوار له مع احد زملائه في الدفعة وهو بهم بإعدامه :

_ شايف انه نحن مو قد المقام، انتو ناس أغني وأكابر، نحن فلاحين ، مو هيك؟....

ولك شوف، افتح عيونك وطلع لهون، شايف هذا البوط، بوط أحسن منك ومن أختك وأهلك و كل عشيرتك وطائفتك ... ولا كلب. (خليفة، 2010، 66).

هذا نموذج عن ابن البادية التي صدمته الحاضرة بعاداتها وتقاليدها و الذي إحتقر منذ زمن قريب بسبب أصله الوضع _ نظرة أهل المدن لأهل الريف_ فتقلده للسلطة فتح بئر الشر وأجج نار الانتقام فراح يُقَتِّلُ عليه يشفى من جرح الماضي .

احتقار أبناء المدينة لأبناء الضيعة ولّد مركب نقص و عقدا نفسية دفينّة _ حسب الكاتب_ جعل سعيهم جعلت من سعيهم للسلطة سعيًا انتقاميًا، فصار التعايش بينهم مستحيلًا في ظل سباق نحو البقاء ينادى فيه كل مناد عشيرته و طائفته.

صراع المثقف مع السلطة:

الرواية العربية طالما اهتمت بالمثقف و مكانته في المجتمع، فصورت ما هو عليه وما يجب أن يكونه، و المثقف بوصفه إنسان علم وثقافة ومواقف حضارية (الشاذلي، 1985، ص 30)، شكل بؤرة صراع في الرواية ، لأن السلطة اعتقلت بل استهدفت المثقفين وأصحاب الشهادات الجامعية من أطباء و مهندسين وغيرهم، كنسيم الدكتور المتخرج من فرنسا و غسان الدكتور المعترف به على صعيد عالمي، دكتور سمير و دكتور الجيولوجيا المتخرج من أمريكا ، ولا أدل على أن المثقفين في سجن تدمر كانوا متواجدين بأعداد هائلة من موقف طبيب السجن حين دخل المهجع وطلب من الأطباء الوقوف :

" بانث دهشة حاول إخفاءها عندما رأى عدد الأطباء". (خليفة 130)

هنا نتساءل كما تسأل خالد بن طوبال بطل رواية عابر سرير : "هل يمكن للوطن أن يلحق أذى لا يلحقه حيوان بنسله ، هل الثورات أشرس من القطط في التهامها لأبنائها من غير جوع؟". (مستغاني، 2014، 45)

الإجابة في الفوقعة هي نعم يلتهم الوطن خيرة أبنائه، فالمثقف تهديد للمتجبر، و النظام في الرواية - يخشى العلماء لعلمهم فيبيدهم ما أمكن ويكسر شوكتهم .

الصراع الحضاري:

إن الصراع بين الحضارات المختلفة موجود وقائم منذ القدم وقد تعددت أشكال الصدام ولكن المشكلة تكمن في أن الاختلاف الثقافي ليس عنصر ثراء بقدر ما هو عنصر مواجهة سياسية كونية بين شعوب العالم (لصفر ص 60).

فكيف يقف الفرد العربي أمام الآخر الغربي ؟ هنا لابد من الحديث عن تيار الرفض وهو تيار تراثي سلفي يدعو إلى نبذ الحداثة و التغريب .قدوته في ذلك السلف الصالح . وشعاره: لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح به أولها، (فارس 2018 ص 100).

وقد اشتد هذا الرأي بعد تعرض البلدان العربية و الإسلامية للاستعمار الغربي و توظيفه للمنتجات حضارته فقهر الشعوب الضعيفة بها ونهب خيراتها ومارس التبشير فكان لا بد من الوقوف في وجه تيار الاستلاب . (تحري 2019، ص 123).

في الرواية نجد رأياً مسانداً لهذا الفكر ، ففي أول مرة يناقش فيها أعضاء المهجع قضية ما غير قضايا القرآن والسنة ، يناقشون قضية الحضارة الغربية والحضارة العربية ، فيقول أحد المشلولين : انظر يا أخي حولك ، أنا مشلول بالكرسي الألماني ، وهذا محمد علي مشلول أيضاً برصاصة استقرت بعموده الفقري مصنوعة في روسيا ، هذا السجن بنته فرنسا ، القيود التي كبلوا بها يدي مكتوب عليها صنع في اسبانيا ، الضابط الذي اعتقلني يحمل مسدساً بلجيكيًا ، الضباط اللذين يشرفون على التحقيق والتعذيب تدربوا في أمريكا بريطانيا وروسيا... هذه منتجات الحضارة الغربية ، وإذا أضفت إلى كل هذا الكثير من الفسق والفجور والانحلال الأخلاقي تكون الحضارة الغربية مجسدة أمامك. (خليفة، 130، 2010)

من خلال كلام السجين نرى موقف الرفض لأنه يرى أن الحضارة الغربية كانت سبباً في سجنه وتعذيبه وإصابته بالشلل ، وأدخلت على مجتمعه عادات غريبة أدت إلى الانحلال و الفجور ، ولكن في السجن نفسه كثيرٌ ممن تعلموا بالبلدان الغربية وهم يرون غير ذلك كطبيب درس في أوروبا وكان هو من ابتدئ النقاش متغنياً ب الحرية الأوروبية ومثلها الديمقراطية ، وقد اختتم الحديث بقوله :

أنا لا أقول أن نقلد الغرب أو نؤخذ سلبياتهم ، في الغرب أيضاً العلوم والطب وتطور الزراعة والصناعة ... وفوق كل هذا وأهم من كل شيء هو أن لديهم إنساناً حراً. (خليفة، 2010، 135)

بعد هذه العبارة يقف القارئ أمام وجهتي نظر : الأولى تقوم بتجريم الغرب باعتباره سبباً في كل مآسي العلم العربي ، أما الثانية فتري أن الحضارة الغربية مهمل لا بد من الاعتراف منه للتطور والتقدم ، ولا يعطي الكاتب حلاً لمشكلة الصراع الحضاري العربي الغربي ، ولا يغلب رأياً على الآخر وإنما يترك للقارئ حرية الاختيار بعد عرض أوجه النظر .

١١. خاتمة:

باحث الرواية وأفصححت عن المشاكل العديدة التي أثارها التعايش القسري في السجن بين أناس لم يختاروا بعضهم بعضاً ، وبيّنت أن مشارهم ومنابتهم المختلفة ، وأرضياتهم الحضارية مختلفة ، كانت سبباً في الاختلاف الديني ، والطائفي ، والطبقي ، والإيديولوجي ، والذي تحول فيما بعد إلى سبب يدعوا للقتل ، وتجلّى الصراع وبلغ مبلغه داخل أسوار السجن وخارجها، وداخل الرواية وعلى أرض الواقع ، كل طيف من الأطياف يرى أن وجوده يقتضي إلغاء الآخر ، فيسعى سعياً حثيثاً لسحقه ، وإن لم يستطع فعلى الأقل يدفعه إلى الانغلاق و التقوقع ، مينا رفضه له ، وهكذا ابتدعت ثقافة رفض الآخر لأنه مختلف.

استطاع الكاتب معالجة مجموعة من المواضيع الحساسة ، مواضيع تلخص ما يعتري المجتمع السوري من خلافات وشروخ ضاربة في العمق، و عبر لعبة سردية تراوحت بين الجلاء و الخفاء ، بين مصطفى خليفة أن الحالة السياسية المتدهورة مسؤولية مشتركة بين المشارب المختلفة والمرجعيات الفكرية والدينية المتباينة فقد سبب رفض كل طرف للحوار والتعايش أزمات متتالية ، أدت في النهاية إلى سلطة قمعية ، وصراع بالسلاح .

الإحالات والمراجع:

- احلام مستغانمي، عابر سرير (لبنان، دار الادب ، 2014) ص 45.
- حنا بطاطو، فلاحو سورية أبناء وجهاتهم الريفيين الأقل شأنًا و سياستهم، ترجمة عبد الله الفاضل، (قطر المركز العربي للدراسات والابحاث، دس)، ص 90.
- خالد حسين، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، (دمشق، دار التكوين ، 2007)، ص9
- عبد السلام محمد الشانلي، شخصية المثقف في الرواية العربية، (لبنان دار الحداثة ، 1985)، ص30
- كمال ديب ، تاريخ سوريا من الانتداب إلى صيف 2011، (بيروت، لبنان ، دار النهار ، 2012).
- صالح سليمان عبد العظيم :سوسيولوجيا الرواية السياسية، (القاهرة، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998)
- مصطفى خليفة، القوقعة _يوميات متلصص_ (لبنان ط 2، دار الادب، 2010)
- ياسين حاج صالح : بالخلاص يا شباب، 16 عاما في السجون السورية، (لبنان ، دار الساقى ط1، 2012).
- المجلات :

تحري ليلي، الحوار الحضاري بين جدليتي المقاومة والاستلاب مفترق العصور لعبير شهرزاد أنموذجا، مجلة إشكالات في اللغة و الادب مجلد 08 :عدد 01 :السنة 2019.

عبد الكريم ناصيف: الرواية العربية والسياسية، مجلة الموقف الأدبي، (سوريا المجلد 35، العدد 416 ، 2005)

محمد لصفير، شرع الله إبراهيم، آليات التعايش في ظل حوار الحضرات، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، (الجزائر، المجلد / 6 : العدد 4: سنة 2019).

فارس نورية ، إشكالية الأنا و الآخر و علاقتها بحوار الحضارات قراءة في طبيعة العلاقة، مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات، (مجلد 7 :عدد 2: السنة 2018).

Louis Althusser, *Idéologie et appareils, idéologiques d'Etat. (Notes pour une recherche) 1970, Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, bénévole, Cégep de Chicoutimi, Québec. 2008, p21*